

"إِنّي أتحرّك طبقاً للتكليف الإلهي"



الشيخ موسى منصور

"إِلَهِي، كفَّى بِي عَزْلَةً أَنْ أَكُونَ لَكَ عَبْدًا" (1). إنّ منتهى الامال وغاية المنى أن يكون المرء عبداً، وال العبوديّة تتحقّق بالطاعة من خلال فعل الواجب وترك الحرام، وهذا ما يعبّر عنه بأداء التّكليف الشرعيّ.

ويُعدّ الإمام الخميني قدس سره من أبرز المصاديق التي حملت لواء أداء التّكليف، على مستوى تشخيصه وامتثاله وحثّ الناس عليه. وإن تبنّعنا قضيّة أداء التكليف في سيرة الإمام قدس سره، لأدركنا الكثير من خلفيّات قيامه وعوده ونفيه وسجنه وتشريقه (العراق) وتغريبه (فرنسا)، ولوقفنا على حقيقة سرّ انتصاره؛ ألا وهي ذوبانه في طاعة المولى عزّ وجلّ. وهذا ما ستتناوله هذه المقالة.

أوّلاً: تميّز الإمام قدس سره في أداء التّكليف

برزت عند الإمام الخميني[ؑ] قدس سره مجموعة خصائص في أدائه للتّكليف، منها:

1. تحديد الأولويّات: لو تزاحمت الواجبات، ينبغي تقديم الأهم[ؑ] على المهم[ؑ]. والفقيّه البصیر هو من يشخّص التّكليف الأوّلی. ولهذا، كان الواجب الأهم[ؑ] بالنسبة إلى الإمام قدس سره -قبل انتصار الثورة- هو إسقاط الشاه. وعندما شكا له أحد علماء جبل عامل تهجير الجنوبيّين جرّاء الاجتياح الإسرائيليّ الأوّل للبنان؛ كان ردّ الإمام قدس سره حاسماً واضحاً: "يجب أن يسقط الشاه". ولاحقاً صرّح هذا العالم: "بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، والدعم الكبير الذي وصل من الإمام قدس سره إلى لبنان، علمت ماذا كان يقصد الإمام قدس سره حينها". إنّها البصيرة ووضوح الرؤية التي أتاحت له إدراك التّكليف الأوّل؛ لأنّ إسقاط الشاه سوف يمهّد الأرضيّة المناسبة لمقاومة الاستكبار وحماية المستضعفين في العالم.

2. الشجاعة: وهي التي ظهرت عند الإمام قدس سره في مواقف كثيرة، منها قوله: "إذا ما رأيت أنّ مصلحة الإسلام تقتضي في وقت ما أن أقول كلاماً ما، فإنّني سأقوله وأصرّ عليه، ولا أخشى من أيّ شيء -بحمد الله تعالى-. وإنّي لم أخف لحدّ الآن، وفي اليوم الذي اعتُقلت فيه، كان الأذالم هم الخائفين، وقد حاولت أنا تهدئتهم" (2).

ومن الشواهد على ذلك أيضاً قوله: "أذكر حينما مارسوا ضغطاً لتغيير الزيّ العلمانيّ السادس في الحوزات، قلت لأحد العلماء من أئمّة المساجد: إذا أجبروك على تغيير زينتك فماذا ستفعل؟ قال: ألازم المنزل ولا أغادره. قلت له: لو أجبروني أنا و كنت إماماً لمسجد، فإنّي سأذهب في اليوم نفسه إلى المسجد..." (3).

3. الثبات والصمود: في مقام أدائه للتکلیف؛ نلمس من الإمام قدس سره صموداً بغير حدود ومهما كلاًّ فهـ الأمر، وهو القائل: "الخميني" لن يساوم حتّى لو أعدموه⁽⁴⁾، ولن أغير موقفـي أبداً حتّى لحظة واحدة، فهـذا تکلیف شرعـي^{"(5)}.

4. أداء التـکلیف هو الدافع: إذا أردت أن تعرف لماذا قام الإمام أو قعد أو تكلـم أو سكت؛ فالتمسـ الحكم الشرعيـ المنوط بهـ، يقول سماحتهـ: "وقد أجبـت كلـ من جاءـ إلىـ يطالبنيـ بالتحرـكـ الهاـديـ وبالوسطـيـةـ، وقلـتـ لهمـ: إنـ لـديـناـ تـکلـيفـاـ إـلـهـيـاـ، وـالـأـمـرـ لـيـسـ مـنـوـطـاـ بـيـ حتـىـ أـتـسـاهـلـ فـيـهـ، لـيـسـ بـيـدـيـ أـنـ أـتـحرـكـ بـيـطـءـ، إـنـنـيـ أـتـحرـكـ طـبـقـاـ لـتـکلـيفـ إـلـهـيـ"(6).

5. المهمـ هو أداء التـکلیفـ: ما يـهمـ الإمام قدس سرهـ بالدرجةـ الأولىـ هو أداؤهـ للتـکلیفـ، بـصرفـ النـظرـ عنـ النـتـائـجـ. يقولـ سـماـحـتهـ: "ليـسـ مـهـمـاـ عـنـديـ أـيـنـ أـكـونـ، المـهـمـ هوـ العـمـلـ بـالتـکـلـيفـ إـلـهـيـ..."(7). وبـهـذاـ، فـهـوـ مـؤـمـنـ بـالـقـاعـدـةـ الـتـيـ أـشـارـ إـلـيـهـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـهـ السـلـامـ: "لـيـسـ بـلـادـ بـأـحـقـ بـرـكـ مـنـ بـلـادـ، خـيـرـ الـبـلـادـ مـاـ حـمـلـكـ"(8).

6. توسيع دائرة التـکلیفـ: إنـ الإـسـلـامـ الـذـيـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ الـعـبـادـاتـ الـفـرـديـةـ هوـ إـسـلـامـ مـرـيـضـ، وـعـاـفيـتـهـ تـكـمـنـ فـيـ توـسـعـةـ دـائـرـةـ الـعـبـادـاتـ لـتـشـمـلـ نـواـحـيـ الـحـيـاةـ وـجـوـانـبـهـاـ كـافـةـ، وـلـهـذاـ، نـلاحظـ أـنـ الإمام قدس سرهـ أـضـافـ إـلـىـ قـائـمـةـ التـکـالـيفـ بـعـضـ الـعـنـاوـينـ الـتـيـ لـمـ تـكـنـ سـائـدةـ فـيـ عـصـرـهـ، وـسـوـفـ نـذـكـرـ بـعـضـاـ مـنـهـاـ:

أـ. حرـاسـةـ إـسـلـامـ: "تـکـلـيفـكـمـ الـأـعـلـىـ هـوـ أـنـ تـحرـسـواـ إـسـلـامـ..."(9).

بـ. القيام \square : "نـحن قـيـاماً \square ، وـأـنـتـم يـجـب أـنـ يـكـون قـيـاماً \square "(10).

جـ. خـدـمـة النـاسـ: "لـا أـطـنـ أـنـ ثـمـة عـبـادـة أـفـضـل مـن خـدـمـة المـحـرـومـين"(11).

دـ. إـقـامـة الحـكـوـمـة: "إـذـنـا مـكـلـّـفـون بـمـواـصـلـة الثـورـة... حـتـى إـقـامـة حـكـوـمـة الـجـمـهـورـيـة الـإـسـلـامـيـة"(12).

هـ. جـهـاد التـبـيـنـ: "أـنـتـم جـمـيعـاً مـكـلـّـفـون شـرـعـاً بـكـشـف حـقـائـق الـأـمـوـر وـمـوـاجـهـة هـذـه الدـعـاـيـات الإـلـاعـامـيـةـ الـتـي أـُـثـيـرـت وـتـثـارـ فـي الـخـارـج... عـرـفـوا كـلـ منـ التـقـيـتـمـ بـهـ حـقـيقـة الـأـوـضـاعـ فـي إـيـرانـ..."(13).

وـ. تـحرـير الـقـدـسـ: "وـإـنـ تـحرـير الـقـدـسـ وـاجـب مـقـدـسـ عـلـى جـمـيع الـمـسـلـمـينـ..."(14).

ثـانـيـاً: سـيـاسـات وـضـوـابـط أـداء التـكـلـيفـ

"الـتـكـالـيفـ الـإـلـهـيـةـ هـيـ الـلـطـافـ إـلـهـيـةـ"(15)، فـإـذـا تـكـرـستـ هـذـهـ النـظـرـةـ؛ يـعـشـقـ الـعـبـدـ طـاعـتـهـ لـرـبـهـ، وـيـكـونـ مـصـداـقاـ لـلـحـدـيـثـ الـقـائـلـ: "أـفـضـلـ النـاسـ مـنـ عـشـقـ الـعـبـادـةـ"(16). وـقـدـ حـدـدـ سـماـحةـ الـإـمامـ قـدـسـ سـرـهـ مـجمـوعـةـ ضـوـابـطـ وـإـرـشـادـاتـ لـأـداءـ التـكـلـيفـ، مـنـهـاـ:

1. الاعتماد على الله: "قوموا بالحراسة بالاعتماد على القرآن الكريم، بالاعتماد على ذات الحق" تعالى المقدّسة، بالاعتماد على صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف... "(17).

2. لسنا مسؤولين عن النتائج: كان الإمام قدس سره كثيراً ما يشير إلى هذا الأمر: "كلّنا مأمورون بأداء التكليف والواجب، ولسنا مأمورين بتحقيق النتائج"(18). ويقول أيضاً: "يثير بعضهم الاعتراضات باستمرار قائلين: لقد قدّمت كلّ هؤلاء القتلى، فما الذي تحقق؟ إنّ هذا هو تكليفنا الشرعي"(19).

3. الثبات مقابل التحدّيات: "إرْنَا لسنا... أفضل من سيد الشهداء عليه السلام، الذي عمل بتكليفه وقتل، ونحن أيضاً نعمل بتكليفنا. ولذلك، فإنّه لا ينبغي لنا أن ندع المجال للوهن يتسرّب إلينا من جراء هذه المكرهات التي تواجهنا"(20).

4. إتقان العمل: "كلّ شخص مكلف بعمل؛ يجب عليه أن ينجز عمله في أحسن وجه، فالقصص في العمل، والبطالة، والتحريض عليها، كلّ ذلك كالسمّ القاتل"(21).

5. وحدة الكلمة: "فالليوم ليس يوماً يصحّ فيه العمل بتفرق، إذا كنتم متفرقين، فستظلّون على هذه الحال حتى النهاية، بل سيسوء حالكم كثيراً. إنّه تكليف إلهي" يحتم عليهم أن تكونوا معاً"(22).

ثالثاً: آثار العمل بالتكليف

من أهمّ آثار الطاعة استدرار الرحمة الإلهيّة، يقول تعالى: ﴿وَأَطْبِعُواْ اللّٰهَ وَالرّٰسُولَ﴾

لَعَلَّكُمْ تُرْهِمُونَ (آل عمران: 132). وفي الآيات والروايات ما ينص على الكثير منها، وقد تعرّض الإمام الخميني قدس سره لهذا الأمر، وذكر جملة من هذه الآثار، هذا بعضها:

1. السعادة: "إِذَا نَحْنُ عَمَلْنَا تَكْلِيفَنَا وَاسْتِيقْطَنَا وَفَهْمَنَا أَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَسِيرَ إِلَى هَذَا، وَنَجَاهُدُ فِي سَبِيلِهِ، وَنَقُومُ لَهُ، وَأَنْ نَعْمَلُ فِي جَمِيعِ أَبعادِ حَيَاةِنَا بِتَكَالِيفِنَا الَّتِي حَدَّدَهَا هَذَا لَنَا؛ فَإِنَّهُ سَيَنْتَهِي بِنَا إِلَى السَّعَادَةِ" (23).

2. التسديد الإلهي: "إِنَّهُ عَلَيْكُمْ وَبِأَدَائِكُمْ لَوْاجِبَكُمْ فَإِنَّهُ سَيَسْدِدُ خَطَاكُمْ" (24).

3. النصر النهائي: "وَلَوْ فَرَضْنَا التَّعْرِضَ لِهَزِيمَةِ ظَاهِرِيَّةٍ، فَإِنَّ الْفَتْحَ النَّهَائِيَّ هُوَ لِأَهْلِ التَّقْوَى وَالْعَالَمِينَ بِمَسْؤُلِيَّةِ تَهْمَمْ" (25).

4. العزة والمنعنة: "مَسْؤُلِيَّةُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا فِعَالِينَ فِي مَعَارِضَةِ الظُّلْمِ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ عَمَلُوا بِهَذَا التَّكْلِيفَ، لَمَا تَمَكَّنَتْ حُكُومَةُ الْعِصَمِيَّةِ مِنَ الْاعْتِدَاءِ عَلَى شَعْبِهَا، وَلَا تَمَكَّنَتْ دُولَةُ الْعِصَمِيَّةِ مِنَ الْاعْتِدَاءِ عَلَى دُولَةِ أُخْرَى" (26).

5. الاستقلال والحربيّة: "اَحْرَصُوا عَلَى أَدَاءِ وَاجِبَاتِكُمُ الدِّينِيَّةِ، لَأَنَّ جَمِيعَ ذَلِكَ لِصَاحِبِ الْحُكْمِ. وَإِذَا أَوْثَقْتُمْ عَلَاقَتُكُمْ بِهِ، فَسَيَنْصُرُكُمْ وَيَسْدِدُ خَطَاكُمْ وَيَرْفَعُ عَنْكُمْ جَمِيعَ الشُّورَ وَيَجْعَلُكُمْ مُسْتَقْلِّينَ وَأَحْرَارًا" (27).

ختاماً: لقد كان أداء التكليف حاضراً بقوة في نهج الإمام قدس سره وفكره وسيرته، ويصح القول: إنَّ ما تحقق على يديه من إنجازات عظيمة؛ كان ببركة حرصه الشديد على أداء التكليف في أصعب الظروف، وبصرف النظر عن النتائج.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 74، ص 400.

(2) الإمام الخميني^{رض} قدس سره، الكلمات القصار، ص 82.

(3) صحيفة الإمام قدس سره، ج 2، ص 210.

(4) الإمام الخميني^{رض} قدس سره، مصدر سابق، ص 81.

(5) صحيفة الإمام قدس سره، مصدر سابق، ج 5، ص 121.

(6) المصدر نفسه، ج 6، ص 153، من كلمة له في ممثلي نقابة الكتاب الإيرانية^{يين}، بتاريخ 20 ربیع الأول 1399هـ.ق.

(7) الإمام الخميني^{رض} قدس سره، مصدر سابق، ص 81.

(8) نهج البلاغة، ص 554.

(9) صحيفة الإمام قدس سره، مصدر سابق، ج 8، ص 292.

(10) المصدر نفسه، ج 8، ص 16.

(11) الإمام الخميني^{رض} قدس سره، مصدر سابق، ص 79.

(12) صحيفة الإمام قدس سره، مصدر سابق، ج 6، ص 299.

(13) المصدر نفسه، ج 5، ص 78.

(14) المصدر نفسه، ج 5، ص 127.

(15) المصدر نفسه، ج 3، ص 222.

(16) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 83.

(17) صحيفـة الإمام قدس سره، مصدر سابق، ج 7، ص 144.

(18) الإمام الخميني[ؑ] قدس سره، مصدر سابق، ص 15.

(19) صحيفـة الإمام قدس سره، مصدر سابق، ج 5، ص 20.

(20) المصدر نفسه، ج 7، ص 45.

(21) المصدر نفسه، ج 12، ص 16.

(22) المصدر نفسه، ج 3، ص 353.

(23) المصدر نفسه، ج 10، ص 178.

(24) المصدر نفسه، ج 2، ص 65.

(25) المصدر نفسه، ج 2، ص 65.

(26) المصدر نفسه، ج 3، ص 216.

(27) المصدر نفسه، ج 4، ص 134.

المصدر: مجلة بقية ا